القيمة الإعلامية للفيلم الثوري في الجزائر "قراءة في فيلم زبانة (1975) لنور الدين عدناني.

بقلم: أ. بن عزوزي عبد الله
جامعة معسكر

تعتبر السينما كيانا متميزا له أسلوبه الخاص كوسيلة اتصال جماهيرية لخدمة المجتمعات وتطورها ، نظرا لدورها الحساس والفعال في معالجة القضايا الاجتماعيةوالسياسية والتحررية ....بالصورة والصوت ، ولأن النشاط السينمائي منذ نشأته لا يزال أحد أكثر الفنون الحديثة شعبية بين الأوساط الاجتماعية ، فإن وظيفته وأهميته لا تنحصر في إمتاع المشاهد وتسليته فقط، بل أصبحت منبرا لأهم القضايا الاجتماعية والسياسية والأحداث الواقعية التي تطرح أمام الرأي العام المحلي والعالمي ، وهذا ما يبدو واضحا في الأفلام الثورية الجزائرية التي أدت دورا إعلاميا ودعائيا كبيرا للتعبير عن الواقع المعيش إضافة إلى التوثيق للثورة المجيدة وشخصياتها النضالية البطلة والترويج لها داخليا وخارجيا.

تلعب السينما دورا حساسا وفعالا في معالجة العديد من الحقائق التي تهم الرأي العام ، حيث تقدم للجماهير "فلسفة حياة زاخرة بالقيم والمعايير .... ؛ يتضافر فيها العمل الإعلامي ، مع العمل الدرامي ، ويصبح الإعلام قويا لافكاك منه"[1] ، مما يجعلها من أهم وسائل الإعلام الحديثة التي تستعرض الواقع المعيش ، وتروج لأهم القضايا المتعلقة بحياة المجتمعات ، لتجسد في الأفلام السينمائية بمختلف أشكالها .

لذلك تعتبر الأفلام السينمائية "وسيلة مهمة من وسائل الاتصال السمعية والبصرية ، التي يمكن استخدامها لتوضيح وتفسير التفاعلات والعلاقات المتغيرة، في مجالات كثيرة، ومع الفئات والأعمار المختلفةوالأغراض المتعددة ، في المجالات التعليمية والإرشادية...والسياسة والقضايا التحررية ....وتتراوح أغراضها

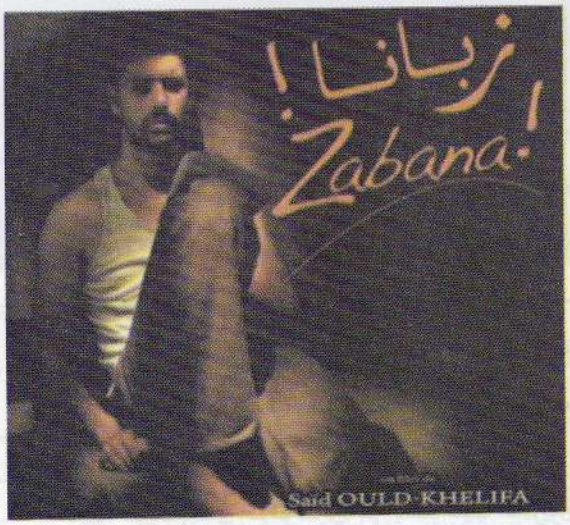

بين الإعلام ، والإرشاد ، والتثقيف"[2] ؛ حيث تعنى بإبراز هذه الحقائق وتجسدها بالصورة والصوت.

رغم تنوع أشكال الأفلام السينمائية وتعددها إلا أنها لا يمكن أن تخلو من غاية إعلامية أو دعائية أو معالجة حدث أو قضية مهمة تهم الرأي العام ولعل أبرز الأشكال السينمائية التي توظف لأغراض إعلامية هي السينما التسجيلية التي تهدف إلى " تحفيز المشاهد على عمل شيء ما أو إبداء رأيه آو توسيع مدارك المعرفة والفهم الإنساني أو لوضع حلول واقعية لمختلف المشاكل في العالم أو في العلاقات الإنسانية "[3] وهذا ما يؤكد أن الأفلام السينمائية تعتبر هي الأخرى من أبرز الفنون التي حملت في صورها ومشاهدها عديدَ القضايا الإعلامية التي جعلت المشاهد عبر مرور الزمن على اطلاع بها سواء ما تعلق بمحيطه ومجتمعه آو ما تعلق بالمجتمعات الأخرى عبر العالم.

تكمن القيمة الإعلامية للفيلم السينمائي في طبيعة القضايا المطروحة من قبل كاتب السيناريو وتجسيد المخرج لها ،هذه القضايا التي يتم التحقيق حولها وتصويرها في عين المكان حيث يتطلب الأمر" جمع المعلومات الضرورية والصور الخاصة بها وما هو مكتوب عنها والاتصال بالجهات التي لها معلومات ضرورية وإجراء المقابلات الشخصية وتسجيله بالصورة والصوت وتوثيق هذه المعلومات ...إضافة إلى القيام بزيارة ميدانية لمواقع الأحداث"[4] بغية إعطاء هذه القضايا المطروحة أكثر مصداقية وإقناعا للمتلقي حيث إن الهدف الإعلامي الذي تسعى إليه مثل هذه الأفلام يرتكز على طبيعة الأفكار المطروحة والشخصيات والأحداث المجسدة وكيفية تناولها من قبل كاتب السيناريو والمخرج والاهتمام برصد هذه الحقائق التي تهم الرأي العام المحلي والعالمي لغرض الترويج لفكرة إيديولوجية تخص المجتمع والهوية الوطنية والتاريخ المشترك والدفاع عن الذات وتوثيقها بالصورة والصوت حيث يرتكز الهدف الإعلامي لمثل هذه الأفلام على "تسجيل الشهادات ذات الصلة بالموضوع المعالج بالأساليب الفنية والتقنية للسينما...والفيلم التسجيلي في مجمله يقوم بوظيفة تنويرية وثقافية"[5]

تعتبر السينما إحدى أهم الوسائل التي يعتمد عليها التلفزيون للترويج إلى العديد من القضايا الاجتماعية والسياسية والثورية ...الخ فضلا عن التوثيق لها وتسجيلها حيث اعتبرت الأفلام السينمائية خاصة التسجيلية منها "منبرا لطرح مثل هذه القضايا في شكل تحقيق صحفي مصحوب بالتعليق والتصوير في عين المكان إضافة إلى تناولها موضوعات حقيقية كالمشكلات الاجتماعية والسياسية والقضايا التاريخية وإبراز سير الشخصيات الملحمية والثورية ....الخ [6] عن الطريق الصورة التي تعتبر من أهم وسائل الإقناع المعتمد عليها لتحقيق مثل هذه الأغراض في الفيلم السينمائي والدليل على ذلك هو أن "أهمية الصورة ازدادت مع الطفرة النوعية التي أحدثتها تكنولوجيا وسائل الاتصال الحديثة حيث أصبحت الأخبار والمواضيع السياسية والاجتماعية تنقل وقت حدوثها من عين المكان ومن هنا فإن المؤدي مطالب بأن يواكب التطور الحاصل في الوسيلة "[7] وهذا ما ينطبق على الفيلم السينمائي الذي يعتمد على تقنية الصورة لتحقيق مثل هذه الأغراض والقيام بدور إعلامي ودعائي كبير مما جعل الأفلام السينمائية إحدى البرامج الهامة ضمن برامج التليفزيون .

لا تزال السينما الجزائرية منذ نشأتها على علاقة وطيدة بالتلفزيون حيث اتخذ منها هذا الأخير (التليفزيون) برامج ومحطات هامة للدفاع عن الهوية الوطنية وتحصين الذات وترويج قضية الثورة التحريرية وتوثيقها خاصة وأن السينما الجزائرية منذ ولادتها أدت دورا إعلاميا كبيرا في قلب حرب التحرير وتواصل نشاطها الإبداعي والإعلامي في خط متواز بعد الاستقلال مما جعلها من بين الوسائل النضالية الهامة التي استعرضت جرائم المستعمر وبطولات الشعب وأيديولوجياته التحررية داخليا وخارجيا، لذلك ساهمت الأفلام الثورية في جعل التلفزيون الجزائري بمثابة "الناطق الرسمي باسم الثورة التحريرية ومرآتها"[8] لتجعل من الأفلام السينمائية بشتى أنواعها واجهة إيديولوجية لتمجيد مآثر الشعب الجزائري وبطولاته وتخليد أبطال الثورة داخل الوطن وخارجه وهنا تكمن القيمة الإعلامية لهذه الإنجازات الفنية التي حاولت استعراض قضية الثورة وتضحيات الشعب داخليا وخارجيا بفكر إيديولوجي يهدف إلى الدفاع عن التاريخ المجيد وتحصين الذات من الاغتراب ومواجهة الآخر والمشكك في الثمن النفيس لهذا الوطن .

على هذا الأساس تعتبر"السينما واجهة إيديولوجية عكست الكثير من القضايا وخدمت غايات هامة تمثلت في تمجيد صانع حرية البلد وتاريخه الحديث –خاصة بالنسبة إلى السينما الجزائرية–والدعاية إلى التصورات الرسمية في مجالات الصحة والسياحة والتعليم والإعلام....الخ"[9]

تواصل الإنتاج السينمائي في الجزائر بعد الاستقلال في شكل مرتبط بقضايا الثورة وشخصياتها الملحمية ورغم تركيز السينما في تلك الفترة على إنتاج الأفلام الثورية التي جعلت المجتمع الجزائري متمسكا برفض التواجد الاستعماري وترسيخ هذه الفكرة في ذهن أفراد المجتمع عبر مرور الأجيال [10] إلا أنها أدت دورا إعلاميا كبيرا داخليا وخارجيا من خلال طرحها لأفكار أيديولوجية تخص الهوية الوطنية والثورة التحريرية وشخصيات بطولية ذاع صيتها في أنحاء

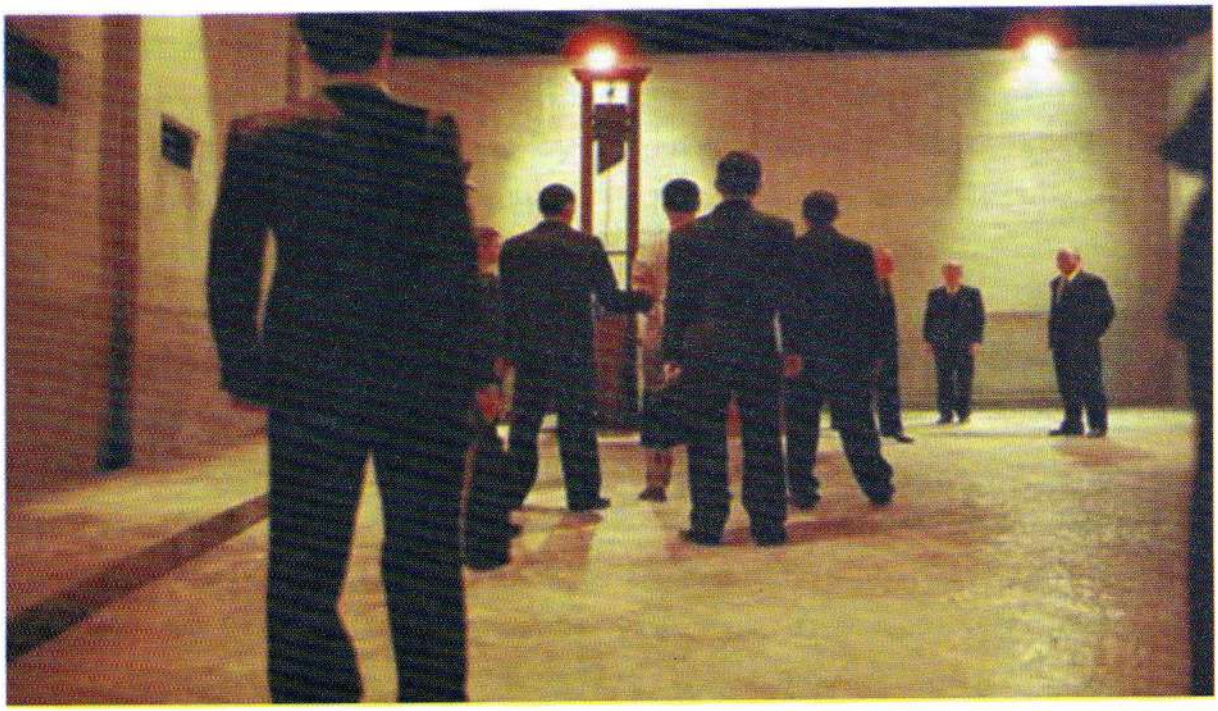

العالم ساعية بذلك إلى مواجهة مغالطات المستعمر تجاه القضية الوطنية والثورة التحريرية والتشكيك في نزاهة وأحقية النضال الثوري للشعب الجزائري وشهداء الثورة ،ردا على وصف المستعمر الغاشم الذي طالما اعتبرهم بالمجرمين والخارجين عن القانون فمثل هذه القضايا الإيديولوجية طرحت في العديد من الأفلام الجزائرية من وجهة نظر إعلامية من خلال الرسالة التي حملتها السينما الجزائرية إلى الرأي العام داخليا وخارجيا ورغم أن أغلبها كان في شكل روائي إلا أن أصحابها حاولوا قدر الإمكان أن يروجوا للثورة المجيدة من خلال إقحام بعض المشاهد واللقطات التسجيلية الواقعية والحقيقية التي جعلتها ذات مصداقية كبيرة وجعلت المتلقي في الوقت ذاته أكثر اقتناعا بمضمونها وأفكارها الإيديولوجية والتحررية المطروحة أمام مختلف الجماهير عبر العالم،وهذا ما ينطبق على فيلم معركة الجزائرالذي يعد من أنجح إنتاجات السينما الجزائرية الذي حقق دورا إعلاميا ودعائيا كبير لقضية الثورة التحريرية بأبطالها والتوثيق لها بالصورة والصوت وأكثر من ذلك هو وصول هذا الفيلم إلى المستوى العالمي نظرا للقضايا الثورية المهمة التي طرحت آنذاك أمام الرأي العام داخليا وخارجيا.حيث جعله المخرج الإيطالي جوليوبونتيكورفو منبرا إعلاميا "يستعرض وقائع حرب التحرير في الجزائر والأعمال الفدائية والنضالية لأفراد جبهة التحرير الوطني ضد المستعمر الفرنسي" [11] وبالإضافة إلى الشهرة والنجاح الذي حققه هذا الفيلم عبر العالم فان تلك الوقائع التي جسدت فيه هي الأخرى ذاع صيتها داخليا وخارجيا حيث جعلت مختلف الجماهير على اطلاع بحقيقة قضية الثورة التحريرية وتضحيات شعبها وأعماله الفدائية في سبيل الحرية والكرامة حيث إن طبيعة هذه الأفلام رغم تركيزها على تجسيد مشاهد الحرب والثورة إلا أنها تناولت العديد من المواضيع من زوايا واتجاهات إعلامية مختلفة خاصة وأن تاريخ السينما عامة " سجل تحفا فنية كانت تعالج موضوع الحرب من زوايا إنسانية مختلفة كالدعوة إلى السلام وفضح مآسي الحروب خاصة وأن علاقة الحرب والسينما علاقة غرام قديمة ومتجددة على الدوام"[12]

على هذا الأساس كان توجه السينما في الجزائر توجها إيدولوجيا وإبداعيا وإعلاميا في الوقت ذاته ،خاصة مرحلة السبعينيات التي عرفت فيها الجزائر صحوة كبيرة من حيث إنتاج الأفلام الثورية ؛تلك الأفلام التي اتسمت بالصدق وحظيت باهتمام كبير من قبل الجماهير فضلا عن إتسامها بالواقعية من جهة واستعراض وقائع الثورة وسير أبطالها العظماء من جهة أخرى من

خلال سرد حياة شخصيات ثورية لتشيد ببطولاتها في شكل أفلام وثائقية وتحقيقات صحفية إعلامية لتؤكد من خلالها على همة الشخصية الجزائرية في التضحية والنضال والدفاع عن الوطن في شكل يمتزج فيه التحقيق الصحفي الإعلامي وشهادات المعنيين وشهود العيان مع الإبداع السينمائي في التصوير وسرد القصة والأحداث بالصورة والصوت.

يعيدنا الحنين إلى الصور الرمادية المخدوشة للسينما الجزائرية في مرحلة أوج عطائها الإبداعي عندما أنجز روادها عديد الأفلام التي أصبح بعضها متناسيا اليوم رغم صدقها وجمالياتها ويتجه الجمهور المعاصر إلى بعض الأفلام التي اتسمت بالزيف وطغيان الطابع الخيالي على الاتجاه الإيديولوجي الثوري في أحداثها.

من بين الانتاجات الأولى للسينما الجزائرية هو فيلم زبانة عام ١٩٧٥ للمخرج نور الدين عدناني هذا الفيلم الذي استعرض" سيرة الشهيد البطل احمد زبانا في شكل وثائقي وتحقيق صحفي مصحوب بشهادات من المقربين منه وممن عايشوه وشاركوه في النضال والثورة وعرفوا عنه الكثير حيث حاول نور الدين عدناني من خلال هذا الفيلم أن يسرد مآثر هذه الشخصية الثورية واهم الأحداث التي صادفته (زبانا) في مدينة وهران وضواحيها خلال أيام نضاله الثوري والبطولي حتى آخر يوم في حياته يوم أن اعدم مستشهدا فداء لوطنه وشعبه"[13]

يعتبر هدا الفيلم من بين الأفلام التي رصدت للمشاهد حقائق حية حول سيرة الشهيد زبانة خلال الثورة التحريرية ويعود ذلك إلى الطريقة التي تناول من خلالها نور الدين عدناني هذه الحقائق محاولا بذلك الوصول إلى تحقيق مفصل عن أهم الأحداث التي صادفت زبانة ورحلته في الكفاح والنضال بشكل مقنع.

تكمن القيمة الإعلامية لفيلم زبانه في طبيعة التحقيق الذي أجراه نور الدين عدناني حول حياة البطل حيث رصد شهادات أقرب الناس الذين عايشوه وتصوير أهم الأماكن التي كانت مهمة لكي يعيش المشاهد تلك الأحداث فعلى سبيل المثال يصور المخرج مكان اجتماع البطل بالمناضلين والذي كان عبارة عن مخبزة بمدينة وهران ويتبع ذلك بشهادات أقرب المناضلين الذين كان يثق فيهم حيث يثبت أحد المناضلين في تصريحه تلك الحنكة والشهامة التي تميز بها زبانة ووصل تصريحه حتى إلى الطريقة التي كانت تجرى فيها الاجتماعات في السرية التامة.

ولم يكتف المخرج بمثل هذه الشهادات والوثائق ؛ بل وصل إلى أقرب أفراد عائلته وهذا ما أعطى الفيلم مصداقية كبيرة من خلال تصريح أفراد عائلته ورفقائه في العمل ....الخ.

أثبتت مختلف الشهادات في هذا الفيلم شهامة الشهيد زبانة

التي لم تسمح له بالرضوخ إلى الذل ومهانة المستعمر .

لقد حاول نور الدين عدناني عام 1975 أن يجسد حياة هذا البطل في فيلم وثائقي ورغم هشاشة الوسائل وآلة التصوير التي صرح "أنها كانت قديمة ومكسرة "14 إلا أن إصرار مثل هؤلاء المخرجين على مواصلة النضال الثوري سينمائيا وإعلاميا في الوقت ذاته أعطى المشاهد تجسيدا وسردا مقنعا لقصة الشهيد أحمد زبانة مند بدايته في الكفاح حتى آخر يوم في حياته حيث إن تناول سيرة هذا البطل بتلك الطريقة و ذلك التحقيق الصحفي مكن من الترويج إلى حقيقة الثورة التحريرية وأبطالها عامة وبطولة الشهيد زبانة وشهامته في مواجهة المستعمر بشكل خاص محاولا بذلك التوثيق لهذه الشخصية الثورية من جهة و مواجهة الأخر والمشكك في نزاهة الثورة التحريرية وتضحيات أبطالها والترويج لها إعلاميا وسينمائيا داخليا وخارجيا من جهة أخرى.

وأخيرا تبقى السينما من بين أهم وسائل الإعلام والتواصل التي تطرح أهم القضايا التي تهم الرأي العام المحلي والعالمي .

ينطبق هذا الأمر على السينما الثورية خاصة الوثائقية منها التي اهتمت بتوثيق أحداث الثورات وترويجها إعلاميا داخليا وخارجيا.

تعتبر السينما الوثائقية والتسجيلية من بين أهم الأشكال السينمائية التي توظف لأغراض إعلامية .

كانت الأفلام الثورية الجزائرية بدورها ذات أهداف إعلامية محضة حيث اهتمت بالترويج إلى سير أبطالها وتضحيات الشعب الجزائري والرد على مغالطات المستعمر تجاه القضية الوطنية إعلاميا وسينمائيا.

فيلم زبانة 1975 من بين أهم إنتاجات السينما الجزائرية التي انتهجت هذا الشكل حيث تناول نور الدين عدناني قصة البطل في فيلم وثائقي في شكل تحقيق صحفي مركزا على الشهادات والوثائق الضرورية والمقنعة التي أعطته مصداقية كبيرة في عرض قصة البطل في هذا الفيلم السينمائي.

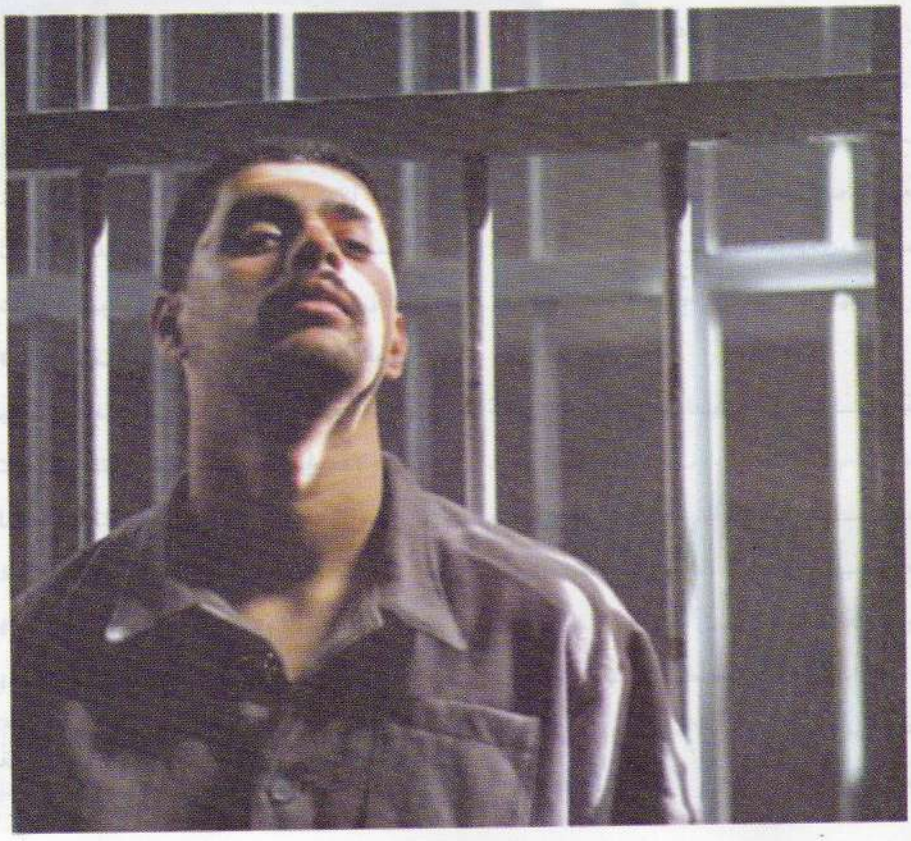

الهوامش :

1- رجاء عبد الرزاق الغمراوي، الدراما وقضايا المجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط؛ 2013، ص63

2- اشرف شتيوي، السينما بين الصناعة والثقافة، دراسةنقدية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 2008، ص23

3- اشرف شتيوي، السينما بين الصناعة والثقافة، المرجع نفسه. ص31

4- عقيل مهدي يوسف، جاذبية الصورة السينمائية، "دراسة في جماليات السينما"، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، د.ط، د، ت، ص225

5- عبد المجيد شكري، الدراماالتلفزيونية، فن الكتابة وإخراج التمثيلية التلفزيونية، دار الفكر العربي، ط1، 2009، ص 79

6- ينظر طارق سيد احمد الخليفي، فن الكتابة الإذاعية والتلفزيونية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 2005، ص100/101

7- مخلوف بوكروح، الاتصال الشفوي، كيف تنمي مهارات الأداء؟، مطبعة حسناوي مراد، الجزائر 2005، د.ط، ص109

8- كلمة الرئيس الراحل هواري بومدين، أمام مسؤولي الصحافة الوطنية يوم 20 أكتوبر 1965، جريدة المجاهد22 أكتوبر 1965، نقلا عن عبد الحميد حفيري، التلفزيون الجزائري واقع وآفاق، المؤسسة الوطنية للكتاب، شارع زيروتيوسف، الجزائر، د.ط، 1985، ص66

9- عبد الحميد اتباتو، وظائف السينما المغاربية من إنضاج الوعي الفني إلى خدمة اليقين الإيديولوجي، "الجمالي والإيديولوجي في السينما المغاربية" منشورات نادي ايمزوار للسينما مطبعة الحرية المغرب، الإصدار السادس ص27

10- ينظر عبد الحميد حفير التلفزيون الجزائري واقع وآفاق، مرجع سابق ص10

11- فيلم معركة الجزائر للمخرج الايطالي جوليوبونتيكورفو- www.youtube.com

12- سليمان الحقيوي، سحر الصورة السينمائية، (خبايا صناعة الصورة)، دار الراية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 21

13- فيلم زبانة عام 1975 إخراج نور الدين عدناني (تم عرض هذا الفيلم في التلفزيون الجزائري في محطة وهران 1975

14- تصريح للمخرج نور الدين عدنان ي في اللقاء السينمائي الرابع لمخبر فهرس الافلام الثورية في السينما الجزائرية يوم 18/02/2014.